لم نخسر شيئاً ...

قصة بقلم الدكتور احمد موسى الحسيني

عدتُ الى البيت مساء وأنا مبتهج كالنشوان لاني حققت رغبة أولادي الملحة في شراء أقراص « القطائف » لتحشى بالجوز والسكر وتقلى حتى يذوب السكر في جوفها كما تذوب هي في الجوف . ولكن النشوة ما لبثت ان انقلبت الى خيبه أمل ، والبهجة الى ترحة ؛ وقضينا السهرة نلوك السنتنا الجافة بدلاً من أن نلوك القطائف الرخصة ..

كنت عائداً الى البيت وأنا موقن بأن كل شيء على غاية ما يرام ، وبأن القطائف الساخنة لن يحول دونها حائل . وماذا يمكن أن يحول دونها ؟ لقد ذهبت بنفسي صباحاً الى السوق ، واشتريت القطائف من هذا الشارع الضيق ، الذي يشبه الزقاق ، والذي يتفرع من شارع أبي النصر ، على بعد خطوات من حانوت السمك .

واحتملت أشق ما يمكن أن يحتمل في سبيل شراء القطائف . فالطريق المؤدية الى الشارع الضيق مبلطة . وبائعو السمك الذين يجلسون على مقربة من الحانوت ، عارضين سمكهم على قارعة الطريق ، لا يكفّون عن رش سمكهم بالماء ليبدو طازجاً دائماً أبداً . وصاحب حانوت السمك يجاريهم بل يتنافسهم في الرشّ ، فتبرق عيونُ السمك لحظات لتغري المشتري بالشراء ، ثم يختفي البريق ليعاود البائعون الرش . وهكذا ينضح الشارع بالماء . وما اسهل ان يتزحلق المار او ان يختل توازنه وهو يمشي على البلاط الذي أضحى من كثرة الرش زلقاً لامعاً لكأنه درج ميضأة كثيرة الرواد !

والمرور في تلك الطريق من أكره الأمور الي ، لأني كلما مررت فيه واجتزته حمدت الله على السلامة وطمأنت نفسي على العودة الى بيتي وأولادي .. وهذا سرّ تهربي من شراء القطائف مع إلحاح اولادي . وعلى كل حال ، فقد اجتزت الصراط في الصباح وأوصلت القطائف الى البيت ، ووضعتها في الخزانة ، وأوصيت بها الصانعة خيراً ..

وكنت واثقاً أن السكر كثير في البيت . فقد اشتريت منه كمية كبيرة أمس . ولم نأكل بعد حلوى حتى ينفد .

وأعطيت الصانعة ليرة يداً بيد ، وقلت لها : اشتري الجوز في الصباح وقشريه واخلطيه جيداً بالسكر ، وليكن كل شيء مهيّأ عند المساء . واذا كان يمرّ ببالك خاطر فاخبريني الآن كيلا تحتجي بأنك نسيت شيئاً ما لأمر ما — كما تفعلين عادة . وأعدت هذه العبارة مراراً على صانعتنا « زهر » حتى حسبت نفسي ألقن طلابي درساً في قواعد اللغة . ولم أترك « زهر » قبل أن وثقت ثقة تامة بأن كل شيء مُعد ، وأنه لن يطرأ شيء هذه المرة يحول دون القطائف . وزيادة في التوكيد قلت لها :

« لا تعتمدي في شراء الجوز على البائعين المتجولين . فربما انقطع تجولهم اليوم لسبب لا نعرفه . وعند (أبي طالب) كيس جوز شاهدته اليوم ، فاذهبي اليه واشتري منه . ولا يخطر ببالك الاقتصاد . أفهمت ؟ »

وكأن الحاحي ضايقها . فظهر على وجهها التبرم . ثم قالت : «سيدي!» وأسرعت في الجواب : « نعم ، ستي . قولي سريعاً ، أينقص شيء ؟ أهناك عائق محتمل الوقوع ؟ » فقالت بسذاجة الفتها منها : « سيدي ! لو جاء بائع الجوز المتجول قبل ذهابي الى حانوت (أبي طالب) أأشتري منه امْلا؟» فأجبتها ضيقاً: « ألم اقل لك الف مرة تحدثي بعقلك ، واعملي بعقلك ، الى متى ستظلين بلهاء ؟ إني ذكرت لك حانوت (ابي طالب) كي استوثق من شرائك الجوز اليوم ، وكي احول دون ادنى عذر قد تعتذرين به . وان مر المنجول قبل ذهابك فاشتري منه ، اشتري منه . المهم ان تشتري الجوز. افهمت الآن ؟ »

وأرادت ان تهدىء اعصابي وأن ترضيني ، فقالت . « نعم ، سيدي فهمت كل شيء . تريد أن تأكل القطائف مساء. ولا يهمك أي شيء آخر . أليس هذا كل ما تريده ؟ » قلت : « عافاك . هذا كل ما أريده . »

وأقفلت الباب ورائي وانا متأكد من ان القطائف ستحشى وتقلى وتكون مهيأة في المساء ، وان كل شيء قد أحكم غاية الاحكام . وما شعرت إلا ويدي تمس الباب لتتأكد من إحكام إقفاله ، كأن عقلي الباطن يقول : «لقد أحكمت الأكلة كما أحكمت إقفال الباب ..»ولا بأس من التثبت دائماً من كل شيء خشية الابتئاس والخيبة ..

وكنت في طريقي الى البيت مطمئناً غاية الاطمئنان الى أن الأولاد سيأكلون القطائف التي طالما الحوا علي بشرائها فتهربت الى ان توكلت على الله واخترقت السوق وانعطفت على بائع القطائف وحملتها بيدي . ولم يخطر ببالي أي وسواس في هذه المرة. مع ان الوساوس كثيراً ما تنتابني عندما أُكِلُ الى زهر قضاء حاجة . فأنا اتوقع ان تخفق لسبب من الأسباب ، صغر ام كبر .. ومبررات الاخفاق عندها اكثر مما يخطر ببال إنسان . وعندما اعتقد ان كل شيء ميسر ، وأن الحاجة مقضية لا محالة ، تخلق لها عائقاً من لا شيء .

اما هذه المرة فمن المستحيل ان يقع أي عائق . اقراص القطائف في الخزانة . وليس عندنا بحمد الله قط نخشاه . والسكر مكثب . وجوز (ابي طالب) ملء الكيس . والليرة بيد زهر الحديدية .

وهكذا سرت في عودتي الى البيت مطمئن البال ، أكاد اذوق حلاوة القطائف بين اضراسي . ولم لا ؟ ألم احكم العدّة ؟ ألم أحكم إقفال الباب زيادة في الاستيثاق ؟ وماذا عسى ان يحدث ؟ لا شيء بالضرورة !

ودخلت الدار وأسرعت الى المطبخ . ورأيت زهر واقفة وقفة التواء ، ورأسها مسند الى يدها . وهي وقفة لها دلالة بليغة عندي . ودلالتها ان زهر حانقة على الدنيا ، لأن الدنيا لم تسر طوع هواها ، ولم تنفذ رغبتها . اما ان تحنق الدنيا عليها هي لأنها لم تحتط للامور ولم تحسب لكل امر حسابه فأمر لا يليق ، ولا يجوز ان يذكر أمامها ..

وكانت الوقفة كافية لتفهمني ان لا قطائف الليلة . ولكن الذي حيرني واذهلني أني رأيت قشر الجوز مكوماً على الأرض . ورأيت السكر في طبق كبير . ورأيت اقراص القطائف في وعائها . ورأيت النار والمقلى . رأيت كل شيء يمكن ان يؤلف القطائف . ومع ذلك لم أر القطائف ، بل أريت بدلاً منها وقفة زهر تحدثني بأبلغ لسان ان لا قطائف الليلة ..

ومن ذا الذي يستطيع ان يسوي وقفة زهر ، وان يحل العقدة التي عقدتها بين عينيها ، وان يفتح فمها المطبق لتفصح عن السر المغلق ؟ ورأيت مهمتي الشاقة التي اديتها في الصباح يسيرة غاية اليسر. ازاء المهمة التي تواجهني الآن . وشرعت احتال على زهر بمختلف الوسائل لأغريها ببسط اساريرها أولاً وبالكلام ثانياً .

ودنوت منها وقلت لها بصوت رقيق : « يا زهرة الأزهار ، يا ريحانة

الدار ، لا تقفي هذه الوقفة البشعة ، فالعرس ينفرون من القامة المنحنية والوجه العابس . » وطاب قولي لها ، ومس قلبها ، فتحركت حركة خفيفة ، واستمررت في الحديث : « أتريدين ان تقفي هكذا الى الصباح ؟ لا . إذن اجلسي على المقعد الذي بجانبك وابدأي حشو الأقراص ، فاني أرى كل شيء جاهزاً . واذا كنت تحتاجين الى عون فأمري ! » ورفعت رأسها وأدارته نحو قشر الجوز ثم تنهدت بحسرة ولوعة . وأتممت : « ما بالك يا زهر ؟ هل نسينا شيئاً ؟ هل نسينا دعوة الحبيب ليشاركنا في الطعام ؟ هل غاب عنك أني سأكون اول الشاهدين امام الخاطبين والخاطبات انك طاهية من الطراز الاول ؟ » ولاحت على وجهها ابتسامة سرعان ما اختفت . ثم اعتدلت قامتها وبدأ الجد عليها ، ومدت يدها الى جيبها واخرجت ليرة ووضعتها على المائدة قائلة : « سيدي ، هذه هي الليرة التي أعطيتني اياها لشراء الجوز .. » وصحت غاضباً : « كيف ؟ ومن اين هذا القشر ، إذن ؟ هل لمعته من الشارع ، ام انك فهمت مني ان تشتري قشراً لنحشي الأقراص ، ام ماذا ؟ » وضقت بصمتها ذرعاً . وأدنيت المقعد منها ، وسحبتها اليه ، وقلت لها : « اجلسي ، وحدثيني بما جرى حالاً . »

وجلست على المقعد وقالت : « سيدي ! » وصحت : « قلت لك مائة مرة لست سيدك ولا سيد احد من الناس . اختصري الكلام وادخلي في الموضوع فوراً .. » قالت: « اتذكر الليرة المغشوشة التي اعطانا إياها احد الباعة المتجولين ؟ » قلت : « أتقصدين الليرة التي الصق بها رقم مخالف رقمها الأصيل ؟ » قالت : « لا ادري . لكن اقصد الليرة التي امتنع البقالون عن اخذها لأنها مغشوشة . » واردت الاختصار ، لأنه من العبث ان أفهم زهر سر غش الليرة . فالليرة مغشوشة لأن البقالين امتنعوا عن اخذها . اما السبب فلا يعنيها . وقلت : « نعم ، يا ستي ، أذكرها . وما دخلها في القطايف ؟ » قالت: «لقد عز علي ان يغشنا الباعة المتجولون وان نخسر الليرة . » قلت : « هيه .. ثم ماذا ؟ » قالت: «واردت ان اصرف الليرة . وما ان مر بائع الجوز وصاح على جوزه حتى اسرعت اليه وساومته ، فاذا جوزه ، يا سيدي ، رخيص . إنه دون ثمن (أي طالب) . واشتريت منه كيلوين بليرة .. ونقدته الليرة المغشوشة . ولم يفطن اليها . واسرعت الى البيت وأنا اتلفت ورائي خشية ان يدرك الحيلة . ولكنه لم يدركها . وظفرت بالجوز رخيصاً ، وصرفت الليرة المغشوشة في وقت واحد. كيف، يا سيدي، الست بارعة؟» وصحت : « بارعة ! بارعة ! اتمي كلامك بسرعة . »

ثم تنهدت وقالت : « وقبل ان نحضر كسرت الجوز لأحشو القطايف ، لأني أعرف أنك تحب ان تأكلها وهي ساخنة . وأنا كذلك احبها ساخنة. والقطايف الباردة تصبح كالجلد تقضمها الأسنان قضماً ، في حين تذوب القطايف الساخنة في الفم . » ولاكت لسانها وبلعت ريقها . وبلعت ريقي انا ايضاً . وتصورت القطايف الساخنة تحمل من المقلى الى الطبق فوراً ويسكب فوقها السكر المذاب. وكادت هذه الصورة تنسيني جوهر الموضوع. ولم اجرؤ على توبيخها على الاطالة في الحديث . ثم قلت: « طيب ، يا ستي، ثم ماذا ؟ » قالت : « سيدي ، لا تغضب . كسرت الجوز فاذا به جوز فارغ . وهذا هو على الارض امامك . وما تجمع من لبه لا يكفي حشو قطعة واحدة ! لقد غشنا البائع ، الله يغشه ! » وأشارت بيدها الى السماء تطلب الاستجابة . ثم اتمت بسرعة وسذاجة : ولكن، سيدي ، نحن ايضاً غششناه . إنا لم نخسر شيئاً . أليس كذلك ؟

ونظرت الى قشر الجوز ، والى طبق السكر، والى الاقراص ، والى المقلى ، ثم صوبت نظري الى زهر وقلت لها وانا اخرج من المطبخ كاسف البال : « اجل لم نخسر شيئاً . ومع ذلك خسرنا كل شيء ... »

الجامعة الاميركية في بيروت — **اسحق موسى الحسيني**

عودة البطل

بالأمس عاد
مكللاً بجراحه
كالراية المتمزقة
في المعركه
خفاقة بدم الأباه
بالأمس عاد
بالأمس عاد ووجهه
ما زال يومض بالأمل
وعلى العيون
صرخات عمر لم يزل
بيد الكفاح
بالأمس عاد
بالأمس عاد لبيته
قلباً تعانقه الحياه
والذكريات
المعتمات
كنوافذ الدير القديم
بالأمس عاد
بالأمس عاد لبيته
فبكت وجوه اربعه
فرحاً بمقدمه الذي ما أمّلوه
وعلى اللقاء
همّتْ دموع
وبكى معه
صدرٌ حنون
صدرٌ حنون ارضعه .

القاهرة — **كمال نشأت**
من (رابطة النهر الخالد)